يناير 2013 - الثمن 6 جنيهات

# الهلال

عدد خاص

# الثورة والإبداع

■ التجليات الإبداعية لكل ثورات العالم ■ الثائر والشاعر (توأم سيامى) لا ينفصل أبداً ■

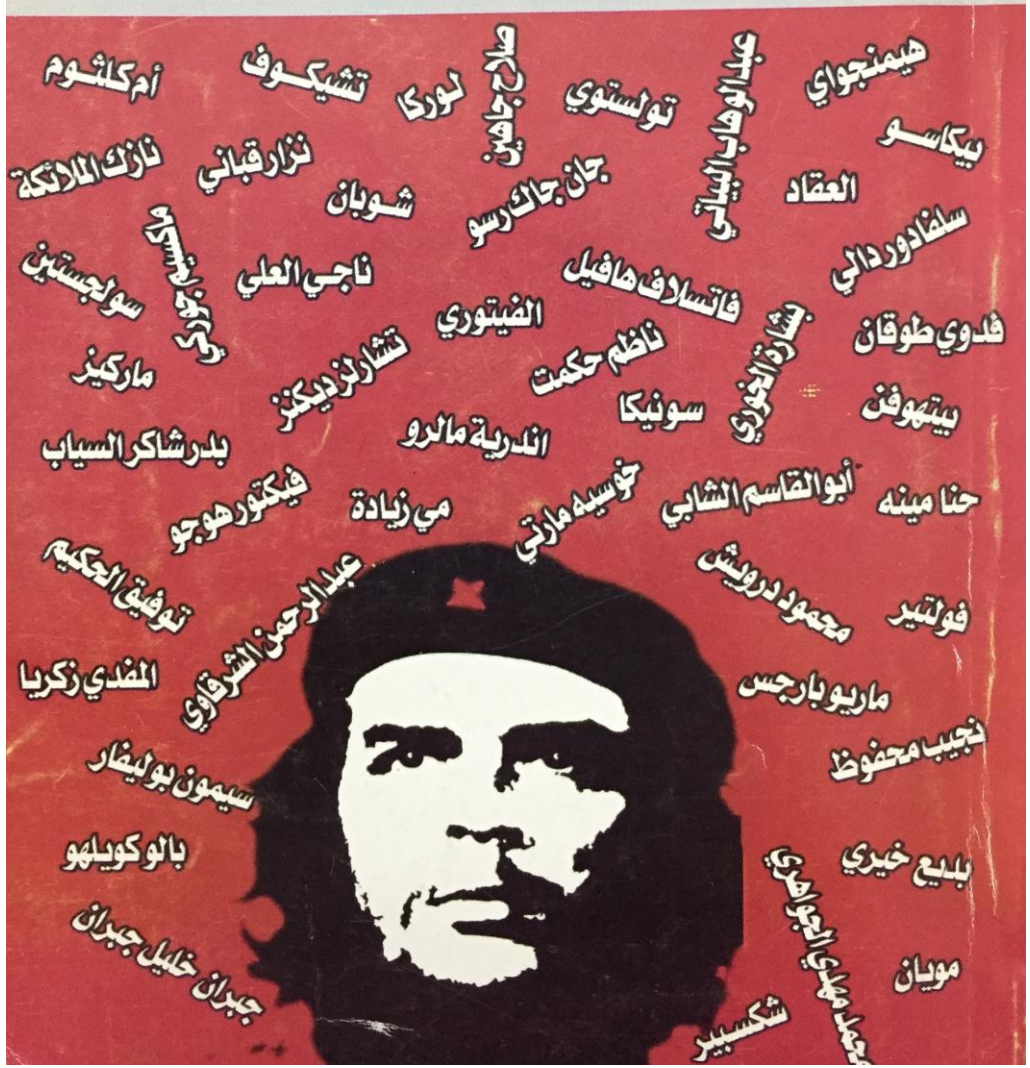

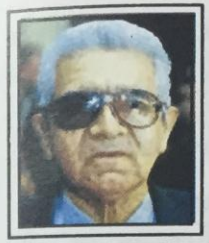

د. حسن فتح الباب

# الجزائر شهداء وشعراء

تشغل الجزائر موقعا مميزا بين دول الشمال الإفريقى بحسب المعايير التاريخية والجغرافية والسكانية. وهى تُحد شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وجنوبا بدولة بالى وشرقا بتونس وليبيا وغربا بدولة المغرب وتضرب الجزائر بجذورها فى أعماق التاريخ.

وقد توالت انتفاضات الشعب الجزائرى ومقاومته للمستعمر الفرنسى منذ وطئت قدماه المدنستان أرضه الطاهرة، وما إن يقمع هذا العدو الأثيم انتفاضة حتى تندلع نيران أخرى إلى أن قامت ثورة أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ التى لم تهدأ إلا بعد انتصارها وانتزاعها استقلال الجزائر من براثن الاستعمار سنة ١٩٦٢.

وتعد ثورة التحرير الجزائرية من أهم الثورات فى القرن العشرين بل فى شتى العصور قديما وحديثا، ولا تضاهيها إلا ثورة فيتنام، من حيث صلابة إرادة التحرير ووحدة الشعب وكثرة عدد الضحايا، إذ بلغ هذا العدد نحو المليون ونصف المليون فى الجزائر والمليون فى فيتنام.

وعلى الرغم من قلة عدد المثقفين والمبدعين الجزائريين فى عصر الاستعمار الفرنسي، فقد أنجبت الجزائر علماء وشعراء وكتابا وصحفيين نشئوا فى الكتاتيب التى أبقى عليها المستعمر، ووصلت إليهم بعض الكتب الدينية والثقافية من مصر عن طريق تونس، فأسست جمعية العلماء الجزائريين المسلمين.

الشورة والإبداع

محمد العيد آل خليفة.. الأب الروحي لشعراء الثورة الجزائرية وباعث النهضة الثقافية

الثورة الجزائرية

## الشاعر محمد العيد وثورة الجزائر

كان الشاعر محمد العيد آل خليفة من أبرز أعضائها المؤسسين. وعرف بإيمانه العميق بالعروبة والإسلام والوفاء لوطنه وتضحيته فى سبيله، وقد ولد سنة ١٩٠٤ فى بلدة «عين البيضاء» التى تقع فى الجنوب الصحراوى الجزائرى مثله فى ذلك مثل معظم الشعراء، وفى هذه البلدة حفظ القرآن الكريم والمبادئ الأولية فى التعليم الديني، ثم انتقل مع أسرته إلى مدينة «بسكرة» حيث استكمل تعليمه وأمضى الشطر الأكبر من حياته، وسافر إلى تونس حيث أمضى عامين دارسا فى جامع الزيتونة، وعاد إلى بسكرة ومنها إلى الجزائر العاصمة حيث عمل معلما بمدرسة الشبيبة الإسلامية الحرة، واستغرق فى هذه الوظيفة اثنى عشر عاما.

وفى هذه الفترة أسهم الشاعر محمد العيد آل خليفة فى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ونشر معظم قصائده فى صحفها، ثم كانت عودته الثانية إلى بسكرة سنة ١٩٤٠ بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ونزول جنود الدول المتحالفة ومنهم الأمريكيون فى الجزائر التى كانت تستعمرها فرنسا منذ ١٨٣٠، ومن بسكرة انتقل محمد العيد إلى مدينة «باتنه» فى الجنوب الجزائرى أيضا، ثم إلى مدينة «عين مليليه» حيث قضى فى مهنة التعليم أربعة عشر عاما أخرى، كانت خاتمتها عام ١٩٥٤ وهو تاريخ اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر التحريرية سنة ١٩٥٤.

## الشعر رسالة نضال ضد أعداء الوطن

أدرك الشاعر الشيخ محمد العيد آل خليفة منذ وعى الواقع البائس المحيط بوطنه وأهله أنه مسئول عن بذل طاقته فى سبيل تغيير هذا الواقع، فكان بذلك شاعر رسالة ومبدأ قبل أن يكون شاعر إمتاع فني، ومن ثم امتزج فى وجدانه حب الوطن بعشق الشعر، توأم لا ينفصل، أو هما كيان واحد لا يتجزأ. وهو يعبر عن هذه العلاقة الحميمة بين الشعر والشاعر والشعب بقوله فى أولى قصائد ديوانه الذى صدر فى حياته، وقد عنونها «فاتحة ثناء وابتهال»، وعبر فيها عن اتخاذه القريض سلاحا يحارب به المعتدين الغزاة:

**جعلت الشعر فى الدنيا نجيّي**
**ولم أكفف عن استنهاض شعبي**
**فكان لخاطرى كالترجمان**
**وبه لأراه فى أعلى مكان**

وقوله فى قصيدته الثانية التى يهديها إلى «شعب الجزائر البطل الثائر»:

**لقد بنر الشعر فيه الفدا**
**وما الشعر إلا شعور سما**
**وقفت على الشعب جهدى به**
**فديوان شعرى بمرآته**
**وحسبك بالشعر من بائر**
**خيالا بإيحائه الساحر**
**وكرست عمرى إلى الآخر**
**جلا غابر الشعب الحاضر**

هكذا يعبر الشاعر محمد العيد عن رسالة الشعر وهى الدفاع عن حقوق الشعب والتضحية فى سبيله من طريق الإبداع الفنى وجوهره الخيال والإلهام.

وليست أسماء الفارس الشاعر المتصوف الأمير عبد القادر الجزائرى الذى تزعم الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، والشيخ عبد الحميد بن باديس الذى أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والأدباء الشهداء مثل محمد رضا حوحو، ومولود فرعون، وقادة حرب التحرير الجزائرية: العربى بن مهيدي، ومصطفى بن بلعيد، وديدوش مراد، والمناضلات مثل جميلة بوحيرد أطال الله عمرها، والشهيدة حسيبة بوعلي، ليست أسماء هؤلاء إلا شواهد ورموزا إنسانية لدور الشباب الرائد فى تفجير لهيب الثورة، وافتداء الوطن بالدم حتى النصر، ودورهم فى الاضطلاع برسالة العلم والثقافة، واقتحام ساحات الأدب والصحافة، ومنهم من حمل البندقية جنبا إلى جنب سلاح القلم، فإن لم يستطع قام بمهام ثورية لا تقل أهمية عن القتال، وهى تعبئة الجماهير وتوعيتها وتحريضها على مقاومة المستعمرين، وكان جزاء هذا المناضل الاضطهاد أو النفى أو السجن أو القتل.

### من شعر الإصلاح الدينى إلى شعر المقاومة

تدلنا قصائد محمد العيد التى نظمها قبل ثورة التحرير على أنه يعزو مظاهر الشقاء الذى جلبه الاستعمار على الشعب إلى القضاء والقدر، ويرى فى ذلك حكمة إلهية، ولا يذكر هذا الاستعمار البغيض الجانى الذى فرض تلك المآسي، فإذا ذكره فإنه يشير إليه عرضا وتلميحا لا تصريحا، كأنه وحش يتقيه.

وفى المرحلة الثانية من حياة محمد العيد انتقل فى شعره من الدعوة الإصلاحية إلى مرحلة الكفاح الوطنى بعد أن نضج لديه الحس الاجتماعى والوعى السياسي، فتحول من مجرد داعية للدين ومعلم لا يتعاطى السياسة، ثم إلى مؤيد للثورة الشعبية المسلحة، شأنه فى ذلك شأن الكثرة الغالبة من رفقائه، بعد أن يئسوا من أسلوب المسالمة والمهادنة والمطالبة بمنح الجزائريين بعض حقوقهم، إذ كان منطق المستعمر قائما على القوة والغصب، واعتبار الأرض العربية الجزائرية جزءًا لا يتجزأ من التراب الفرنسي، والادعاء بأن حدود فرنسا تمتد من «دانكرك»



شمالا إلى «تمنراست» فى الجنوب الصحراوى الجزائري، وأن أهل الجزائر ينحدرون فى أصولهم من قوم «الغال» آباء الفرنسيين القدامى.

وقد نال شاعرنا محمد العيد ما ناله سائر رفقائه من عذاب قبل ثورة التحرير وبعدها، ففى الفترة التى قضاها فى مدينة عين مليلة مديرا للمدرسة العربية الحرة كما سبق أن ذكرنا، وإماما وخطيبا لمسجدها، تعرض كثيرا للبحث والتفتيش البوليسي، والتهديد والإنذار من قِبل الإداريين الفرنسيين.

ولما اندلعت نيران الثورة فى أول نوفمبر ١٩٥٤ ألقى القبض على الشاعر بعد إغلاق المدرسة المشار إليها، وزُجّ به فى السجن، ثم أُطلق سراحه بعد محاكمته، ثم امتُحن بتجربة استعمارية قاسية ونجا منها، وغادر مدينة عين مليلة بعد ذلك إلى بسكرة حيث أُلزم بالإقامة الإجبارية، وحرم من حق حرية الاجتماع، وطُوِّق برقابة شديدة، حتى انتصرت الثورة سنة ١٩٦٢. وهكذا ظل شاعرنا رهيناً بين جدران بيته، معزولا عن المجتمع خلال سنوات حرب التحرير.

**إذا كان شوقى هو أمير شعراء العرب فإن مفدى زكريا كاتب النشيد الوطنى هو أمير الشعراء الجزائريين**

ويحفل باب «ثوريات» من ديوانه بقصائد تعبر عن كفاحه دون ترميز أو مواربة عرفناهما فى أشعاره المنظومة فى العشرينيات حتى الأربعينيات، ومثالها قصيدة «صرخة ثورية» و«مَن للجزائر»، فلم يعد يطلق أنات حزين مغلوب على أمره، لا حيلة له إلا الصبر والبكاء ريثما يأتى الفرج المقدر، أو يطلق صوت احتجاج أو مجرد دعاء أن ينزل الله العقاب على الظالم، بل غدا شعر محمد العيد غاضبا متمردا، ينظم شعرا كاللهب المتقد، يحرض فيه شعبه على مقاومة غاصبيه، وقد ينظم أبياتا هادئة ولكنها حادة السخرية لاذعة كالسياط، ونرى هذا النموذج فى قصيدته «جد فى هزل وهزل فى جد» التى يشير فيها إلى أساليب الإدارة الاستعمارية، متهكما فى نبرة هازئة قاسية.

وقد مزج شاعرنا فى قصائده بين مضمونين هما عشق الوطن ومؤازرة الثورة، ونتبين المضمون الأول فى قصيدته «الوطن»:

**يا موطنا لى خصبه ونعيمه**
**مصطافيَ الباهى الظليل ومخرفى**
**ما زال حبك ناشئا مترعرعا**
**أقسمت لو خيرتنى فى مصرع**
**إسأل أجب وأمر أطع**
**واصرخ أغث**
**بوركت من وطن تسامى فالتقى**
**وله هوى على المدى وتشيعي**
**زاهى ومشتاى الجميل ومرتعي**
**فى ناشئ بجوانحى مترعرع**
**ما اخترت إلا فى سبيلك مصرعي**
**واصفح أنب واسمع أقل وانصح أع**
**بالمنتهى فى مستواه الأرفع**

ومزج محمد العيد بين وصف الطبيعة وشعر الحماسة وهجاء العدو المستعمر، وذلك فى قصيدة يخاطب فيها الوادى الذى يتخلل الصحراء:

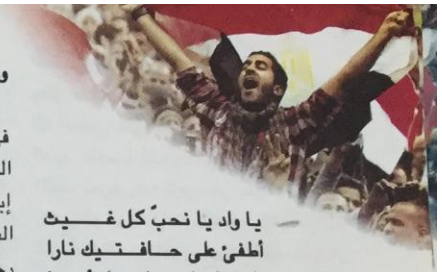

# الشورة والإبداع

**يا واد يا نحبّ كل غيث**
**أطفئ على حافتيك نارا**
**واغسل على حافتيك أرضا**
**كانت مثابا لكل أمن**
**يسقى ربى حوله وغابا**
**أتت على الأنفس التهابا**
**من الدماء اكتست خضابا**
**فأصبحت للأذى مثابا**

إن جمال الطبيعة الصحراوية بعد أن نزل المطر لم يشغل شاعرنا عن محنة وطنه بالاستعمار، فهاجت شجونه إذ تذكر الضحايا فنقم على العدو الغاصب الذى أجرى انتخابا مزورا:

**إن انتخابا جرى بحيف**
**تبّت يدا حاكم غشوم**
**فهو الذى بالفشاء يرمى**
**فى دوره أعقب انتحابا**
**يجر للأمة التهابا**
**وهو الذى يوقد الثقابا**

ومن شعر محمد العيد فى تحريض الشعب على انتزاع وطنه بكل ما يملك من أسلحة هذان البيتان:

**يا قوم هبوا لاغتنام**
**حياتكم**
**الأمر طال بكم**
**فطال عناؤكم**
**فالعمر ساعات**
**تمر عجالا**
**فكّوا القيود**

## وحطموا الأغلال

إن محمد العيد آل خليفة جدير بوضعه فى صدارة الشعراء العرب عامة والشعراء الجزائريين خاصة الذين نذروا حياتهم ووقفوا إبداعهم على التغنى بالوطن، والدفاع عن العروبة والإسلام، وقد استمر محمد العيد فى رحلته الشعرية أكثر من نصف قرن، ملتزما بقضية تحرير الجزائر فى ظل أحلك مراحلها التاريخية، دون أن ينحرف لحظة واحدة عن رسالته طوال عمره الذى قارب الثمانين، برغم ما لقيه من صنوف الاضطهاد.

## الثورة فى شعر مفدى زكريا

إذا كان شوقى هو أمير الشعراء العرب، فإن مفدى زكريا هو أمير الشعراء الجزائريين، فله نفس المنزلة، وقد تأثر بشعر شوقى ولكنه تفرد بشعر المقاومة كما نتبين فى ديوانه «اللهب المقدس» الذى يرمز عنوانه هذا إلى ثورة التحرير الجزائرية، وملحمة إلياذة الجزائر. وترجع المكانة التى حظى بها فى الجزائر خاصة وفى الوطن العربى الكبير عامة ولاسيما فى مصر إلى نبوغه الشعرى وانخراطه فى صفوف ثورة التحرير ناطقا بلسانها مضحيا بحريته، فقد أمضى سنوات عديدة من حياته رهين السجون والمعتقلات، كما ذاعت شهرته لأنه مؤلف كلمات النشيد الوطنى الجزائرى «قسما» الذى لحنه الموسيقار المصرى محمد فوزى نظرا للعلاقات التاريخية الوثيقة بين مصر والجزائر منذ العصر الفرعوني.

وقد ولد مفدى زكريا فى «بنى قين» وهى إحدى قرى منطقة ميزاب بالجنوب الجزائري، ومن الطبيعى أن يكون لزمن الميلاد ومكانه دلالتهما وأثرهما فى تنشئة الشاعر وفى مسار حياته وخصائص إنتاجه شكلا ومضمونا. فالزمن هو عام ١٩٠٨ يقع فى

ثورة المليون شهيد

أحلك حقبة فى تاريخ الجزائر، إذ كانت ترسف فى أغلال الاستعمار الغاشم منذ عام ١٨٣٠، وكان نصيب أهل الجنوب من المعاناة كبيرا كما سبق أن ذكرنا.

ولا شك أن تساؤلات كثيرة قد راودت الفتى مفدى حين فوجئ بمشهد واقع يناقض ما كان يسبح فيه خياله من أحلام حياة كريمة: لم هذا الظلم الفادح الذى يوقعه الدخلاء على أصحاب البلد الشرعيين ؟ ولماذا لا نلم شملنا ونجمع إرادتنا على طرد أولئك المعتدين الذين يستنزفون خيرات أرضنا بغير وازع من ضمير ؟

لقد كانت هذه التساؤلات هى الشرارة الأولى التى فجرت لهب التمرد على الأوضاع الجائرة فى حنايا مفدى زكريا، وألهمته بعد ذلك قصائد الرفض والمقاومة، فكان شاعر الثورة الجزائرية منذ انطلقت فى أوائل الخمسينيات من القرن الماضي.

وثمة عامل آخر شكل وجدان شاعرنا وفكره، وكان له أثره الإيجابى فى شعره وفى تكوينه الثقافى وعطائه الفني، ألا وهو التقاليد العربية الإسلامية الأصيلة التى رسخت فى نفوس أبناء الجنوب الجزائرى منذ الفتح الإسلامى ودخولهم فى الدين الحنيف أفواجا بعد أفواج، ثم مشاركتهم فى فتح الأندلس مع القائد طارق بن زياد الذى ينتمى إلى قبائل البربر الذين اعتنقوا الإسلام، وهم السكان الأصليون للجزائر.

لقد ورث الفتى المنتور لعالم الشعر هذه التقاليد والخصال الحميدة، فتشربت روحه بمناقب الفروسية البعيدة الأغوار فى النفس العربية.

وهكذا نشأ مفدى زكريا شاعرا ثائرا بين جنبيه قلب فارس، ومن أخلاقه شيم البطولة والتضحية فى سبيل المبادئ والمثل العليا، وقد التحق الفتى الشاعر فى طفولته بكتاب القرية حيث تلقى مبادئ العلم والدين، ثم أوفده والده وكان يشتغل بالتجارة إلى مدينة «عنابة» فى الجنوب الشرقى للجزائر، ومنها إلى تونس وهى الدولة المتاخمة للجزائر، والتى ترتبط بها أوثق الارتباط، وفيها واصل دراسته، شأنه فى ذلك شأن كثير من أبناء الأسر الجزائرية

التى تعتبر العلم ذخرا لمتلقيه ولأهله وبلده.

وفى أثناء رحلته إلى تونس طلبا للعلم شرع - كما يقول فى حوار صحفى - فى قرض الشعر وكان ذلك فى سنة ١٩٢٥، فنظم قصيدة بعنوان «كبش الفداء» منها مطلعها وبيت آخر:

**لهفى على شاة لنا قد قيدت**
**استضعفوك فلذ لحمك عندهم**
**للذبح وهى نقية الأدران**
**هلاَّ استلانوا لحم ليث قاني؟!**

وتدفقت قريحته منذ عام ١٩٢٥ بالقصائد التى تحث على الكفاح، ومنها قصيدة «القصيد الثانى» التى تحض على النضال ضد الاستعمار فى المغرب الأقصى، وقد نشرت فى عديد من الصحف فى تونس ومصر، وكانت من وحى جهاد الريف فى المغرب الأقصى بقيادة الزعيم الأمير عبد الكريم الخطابي.

وقد عاد شاعرنا من تونس إلى الجزائر سنة ١٩٢٦ محملا بزاد من المعرفة والثقافة، فياضا بالروح الوطنية وانضم إلى «حزب نجم إفريقيا الشمالية» الذى كان يعمل فى نطاق سري، مقتصرا على توزيع بعض المنشورات، وترويج جريدة «لسان الأمة» لسان حاله، وقد خرج هذا الحزب إلى العلانية سنة ١٩٣٧ وصار اسمه «حزب الشعب»، وأسند إلى مفدى زكريا أمانته العامة، فكتب نشيدا من وحى هذا الحزب الوطنى الرائد مطلعه: «فداء الجزائر روحى ومالي».

ويندد هذا النشيد بسياسة الاندماج والفرنسة التى تقضى باعتبار الجزائر جزءا لا يتجزأ من فرنسا، ومنح أهلها الجنسية الفرنسية، وما يعنيه ذلك من القضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية، وطمس تاريخها وتراثها العربى الإسلامي. وقد دعت إلى اعتناق تلك السياسة الاستعمارية قلة من الساسة الجزائريين أُطلق عليهم اسم «جامعة النواب» بعد أن غررت بهم السلطة الاستعمارية، أو يئسوا من النضال، فتصدى لهم مفدى زكريا وسائر السياسيين الوطنيين الغيورين على بلدهم ودينهم ولغتهم، وكتب نشيدا يدين أعوان فرنسا، فزجت السلطة الحاكمة به وبرفقائه إلى السجن يوم ٢٩ أغسطس ١٩٣٧، وفى عالم المسدود والقيود نظم شاعرنا نشيد الشهداء:

**اعصفى يا رياح**
**أثخنى يا جراح**
**نحن قوم أباه**
**قد سئمنا الحياه**
**أدخلونا السجون**
**ليس فينا خئون**
**اجلدوا.. عذبوا**
**أحرقوا.. خربوا**
**واقصفى يا رعود**
**أحدقى يا قيود**
**ليس فينا جبان**
**فى الشقا والهوان**
**جرعونا المنون**
**ينبئنى أو يهون**

ماجدة ومحمود المليجي في فيلم جميلة بوحريد رمز الثورة الجزائرية

**واشنقوا واصلبوا**
**نحن لا نرهب**

وفى غياهب سجن الحراش بالجزائر العاصمة أنشأ المناضلون السجناء صحيفة «البرلمان الجزائرى» الأسبوعية وكان مفدى زكريا رئيس تحريرها. وقد أُفرج عن هؤلاء الثائرين سنة ١٩٣٩ بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية، ولكن شاعرنا لم يفتر نشاطه فى الحركات السرية التى تعاقبت.

وفى خضم الحرب التى نشبت بين الجزائريين الأحرار والجيش الاستعمارى الذى تمده فرنسا بأحدث الأسلحة، ويمده المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر بالأموال وكل أنواع المساعدات الأخرى، اعتقلت السلطة مفدى زكريا مع كثيرين من السياسيين والصحفيين وغيرهم، وألقت بهم فى ظلمات السجون، وكان اعتقال الشاعر يوم ١٢ إبريل ١٩٥٦، ولم يثن هذا الاعتقال من عزيمته أو يفت فى عضده، ولا نال من توهج شاعريته وتدفقها، بل إن العكس هو الصحيح، إذ زاد صلابة وثورية، وتوالت قصائده كالسيل المنهمر، وتسربت إلى خارج السجن الذى كان نزيلا به، ورددها الشعب لتعبيرها البليغ عن مشاعره، وتصويرها الحى لأشجانه وأفراحه وأتراحه.

لقد بلغت الفترة التى قضاها مفدى زكريا فى السجون سبع سنوات متقطعة ما بين عامى ١٩٣٧ و ١٩٥٩، أما أشعاره فقد استغرقت حياته منذ يفاعته حتى لقائه ربه، فكانت هذه الحياة هى الشعر والثورة متعانقين لا يمكن الفصل بينهما، فنضاله شعره، وشعره نضاله، وما خبت جذوة إبداعه قط، سواء قبل اشتعال ثورة التحرير أو فى أثنائها أو بعد الاستقلال الوطني، فهو شاعر مناضل ثائر فى المقام الأول، وصاحب فكر يدعو إلى وحدة بلاد المغرب العربى الثلاثة خاصة ووحدة العرب عامة، وهو فى الوقت ذاته من أغزر الشعراء العرب إنتاجا للشعر الثوري، وهو يقول عن منطلقات قصائده ومضامينها:

«انطلاقا من عقيدتى وإيمانى بوحدة هذا المغرب الكبير، دأبت منذ سنة ١٩٢٥ فى الدعوة لتحقيق هذه الفكرة السامية، والتغنى بها، وقيادة وفود حزبية لكل من تونس والجزائر، وقد عمدت فى شق طريقى لتركيز هذه العقيدة إلى تخليد بطولات وكفاح أقطارنا

المغربية، وتخليد كفاح زملائى فى النضال من زعماء هذا المغرب العتيد، تلك البطولات التى ما انفك يمجدها المسئولون من أحرار الجزائر فى كل مناسبة، والتى لا يستطيع التاريخ النزيه أن يجحدها أو ينتقص قيم رجالها مهما توزعت الآراء، وإذا اختلفت أو اتفقت أساليب الأنظمة السائدة».

وفى هذا المعنى وهو الإيمان بوحدة المغرب العربى يقول مفدى زكريا مخاطبا الشعر:

**أنت ألهمتنى وما زلت طفلا**
**وتغنيت منذ فجر شبابى**
**لم أزل صادحا على كل غصن**
**عاشقا كل ما به كل من فيه**
**مغربى جنة أفى جنة الله**
**وإذا ما مدحت قومى أليسوا**
**أيها الشعر آية التوحيد**
**بالتحام القوى ودعم الجهود**
**من ترى المغرب الكبير العتيد**
**ومن فوقه ومن باللحود**
**سوى كل صالح وسعيد؟**
**من دمي، من تراب أرض جدودى؟**

### اللهب المقدس

أبدع مفدى زكريا قصائده قبل ثورة التحرير وفى أثنائها وبعدها، وكانت حصيلة عطائه الفنى الغزير والمتنوع فى قالبه وإيقاعه ومحتواه ثلاثة أعمال شعرية هى ديوان «اللهب المقدس» سنة ١٩٦١، وديوان «تحت ظلال الزيتون» سنة ١٩٦٥، وديوان «من وحى الأطلس» الذى نُشر قبل وفاة الشاعر بعام أى فى سنة ١٩٧٦، وملحمة شعرية بعنوان «إلياذة الجزائر» سنة ١٩٧٢. ويعد ديوان «اللهب المقدس» أهم وأشهر أعمال مفدى زكريا الشعرية، باعتباره ديوان ثورة التحرير الجزائرية، فمن وحيها صاغ الأناشيد والقصائد التى تضمنها هذا الديوان الذى يحظى بمكانة خاصة فى الشعر الجزائرى الحديث، مما جعله موضعا لفخار المثقفين عامة والأدباء والباحثين والنقاد خاصة، فأقبلوا عليه حفظا ودرسا، كما ترجمت بعض قصائده إلى اللغة الفرنسية.

ويخص مفدى زكريا ديوانه هذا بمشاعر الاعتزاز والإيثار، لأنه نبض قلبه كثائر، وآية عبقريته كشاعر، وقد وصفه - فى حديث صحفى - بأنه واقع وتاريخ حرب وعصارة قلب شاعر عاش أحداث بلاده فى السجون والمعتقلات، وشهد رؤوس الفدائيين تحصد فى سجن بربروس وهو سجن رهيب كان المستعمرون الفرنسيون يزجون فيه أحرار الجزائر وثوارها، وينفذون فيه أحكام الإعدام بالمقصلة، وعى الآلة الجهنمية التى أعادوها إلى الجزائر بعد أن أوقف استعمالها فى فرنسا منذ حقبة طويلة من الزمن.

ويضم ديوان «اللهب المقدس» أربعا وخمسين قصيدة، منها ست قصائد بعنوان «من أعماق بربروس»، وعشرة أناشيد بعنوان «تسابيح الخلود»، وتسعا وعشرين قصيدة بعنوان «نار ونور»، وثلاث قصائد بعنوان «تنبؤات شاعر»، وست قصائد بعنوان «فلسطين على الصليب»، وتعد القصيدة الأولى وهى «الذبيح الصاعد» رائعة الديوان ودرة



عقده، وإن كانت معظم القصائد الأخرى لا تقل من الشعر. ويقول مفدى إنه نظم هذه القصيدة بسجن بربروس فى الهزيع الثانى من الليل فى أثناء تنفيذ حكم الإعدام بالمقصلة على أول شهيد فى الثورة يلقى مصرعه بهذه الآلة الجهنمية، وهو أحمد زبانا، وذلك ليلة ١٨ يوليو ١٩٥٥.

**الذبيح الصاعد**
**هام يختال كالمسيح وئيدا**
**باسم الثغر كالملائك أو كالطفل**
**شامخا أنفه جلالا وتيها**
**حالما كالكليم كلمه المجد**
**وتسامى كالروح فى ليلة القدر**
**وامتطى منبع البطولة معراجا**
**يتهادى نشوان يتلو النشيدا**
**يستقبل الصباح الجديدا**
**رافعا رأسه يناجى الخلود**
**نشد الجبال يبغى الصعودا**
**سلاما يشع فى الكون عيدا**
**ووافى السماء يرجو المزيدا**

هكذا كانت الأبيات الأولى التى استهل بها مفدى زكريا مرثيته للفدائى أحمد زبانه، وهى من روائع شعر المراثى فى اللغة العربية، وتتسم بالجدة فى تصوير الشهيد إذ شبهه بالسيد المسيح - عليه السلام - لأنه صلب، وبالملاك وبالطفل فى براءته وطهره، ووظف الرموز الدينية مثل ليلة القدر والسماء والمعراج.

ويستطرد الشاعر الثائر قائلا:

**شعراء الجزائر**
**وقود كل الانتفاضات..**
**وصوت الثورة الكبرى**
**حتى تحقق النصر**

**وتعالى مثل المؤذن يتلو**
**صرخة ترجف العوالم منها**
**اشنقونى فلست أخشى حبالا**
**وامتثل سافرا مُحيَّاك جلادي**
**واقض يا موت فيَّ ما أنت قاض**
**أنا إن مت فالجزائر تحيا**
**كلمات الهدى ويدعو الرقودا**
**ونداء مضى يهز الوجودا:**
**واصلبونى فلست أخشى حديدا**
**ولا تلتثم فلست حقودا**
**أنا راض إن عاش شعبى سعيدا**
**حرة مستقلة لن تبيدا**

هكذا يقول شاعر الثورة الجزائرية إن البطل أحمد زبانه صرخ حين ساقه الجلاد إلى المقصلة قائلا: «الله أكبر، تحيا الجزائر»، ويختم الشاعر قصيدته الثورية بالأبيات الآتية:

**زعموا قتله وما**
**صلبوه**
**لفَّه جبرئيل تحت**
**جناحيه**
**وسرى فى فم الزمان «زبانا»**
**ليس فى الخالدين عيسى الوحيدا**
**إلى المنتهى رضيا شهيدا**
**مثلا فى فم الزمان شرودا**

يريد الشاعر أن يقول فى ختام قصيدته إن الشهيد أقوى من الجلاد.

### سعد الله شاعر الزمن الأخضر

يعرف الدكتور أبو القاسم سعد الله فى العالم العربى بأنه المؤرخ الجزائرى القدير، ويعرفه بعض المثقفين ولاسيما فى مصر بأنه شاعر، وهو رائد الشعر الحر «التفعيلى» فى

# الشعر والإبداع

الجزائر، وله ديوان بعنوان «الزمن الأخضر» ويعنى بهذا العنوان ثورة التحرير الجزائرية، وقد كتب قصائده حين كان بالقاهرة طالبا بكلية دار العلوم موفدا من جبهة التحرير الجزائرية، وكتب المفكر الناقد الراحل الأستاذ محمود أمين العالم مقدمة لهذا الديوان.

ومن أهم القصائد قصيدة بعنوان «حقل الزيتون»، وهى قصيدة رقيقة من الأدب النضالي، كتبها الشاعر بالقاهرة فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٥٧ بعد أن علم بنبأ الحكم على الفدائية الجزائرية جميلة بوحيرد بالإعدام، وليست القصيدة بكائية بسبب بشاعة الاستعمار الفرنسي، ولكنها أغنية نضالية تهتف بالحياة والمجد للوطن، وطن الثورة، وطن الزيتون والكرم التى أثمرت بالعرق، وطن الحرية التى أثمرت بالدم:

**أيامك حقل**
**تحرس الثورة والزهرا**
**وسقى الزيتونة والنصرا**
**فى وطنى الخصب**
**وطنى الزاحف للقمه**
**أيامك نغمه**
**فى كل لهاة حره**
**كانت من قبل**
**ضحية**
**فى حقل الزيتون**

وتتوالى النداءات محملة بعطر لحنين إلى الوطن من خلال التغنى بجماليات الطبيعة، وهتافات النوار. ويبدع الشاعر فى وصف جميلة بوحيرد بأسطورة أنثى وطنية:

**يا غنوة حقلى**
**شدى الأوتار المرخيه**
**واحك للصخر وللنخل**
**أسطورة أنثى وطنيه**
**عاشت فى الحقل وللحقل**
**عصفورة حب رفرافه**
**نسجت للحقل أمانيه**
**وشدت للكون أغانيه**
**فى رجة مدفع**
**فى طعنة خنجر**
**يا حقل الزيتون**
**أسوارك عزم وكتائب**
**وصفوف بنادق**
**ى منفذ فى الصف**
**لا خطوة للخلف**
**أبدا أسوارك يقظانه**
**عينا وزنادا يقظانه**
**يا حقل الزيتون**

وعلى وقع موسيقى وزن «المتدارك» المناسب إيقاعه لخطو الجنود على إيقاع نشيد عسكرى يغنى سعد الله للثورة الجزائرية فى قصيدته «إصرار» معبرا عن الإضراب الذى قام به الشعب استجابة لنداء الثورة سنة ١٩٥٧ مستفيدا من إمكانات الوزن الثرية والمتعددة، مما يجعله صالحا لأكثر من غرض شعري، فجاء فى سرعته موازيا لإيقاع التمرد وسرعة انتشار موجته حتى عمت كل أرجاء الجزائر:

**الأفق خباء يتمزق**
**والليل عياء**
**والأرض عرق**



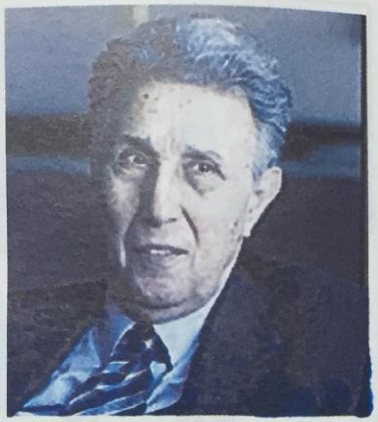

أحمد بن بيلا

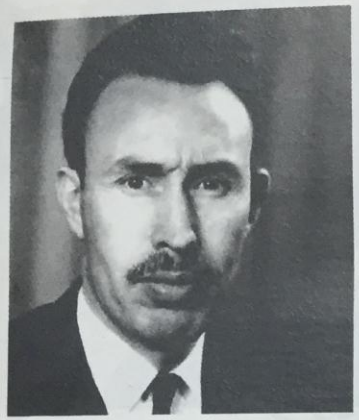

هواري بومدين

**وقباب بيض سهرانه**
**رعب يدنو فى عجل**
**من دبابات تتكثف**
**فى كل الأحياء العربيه**
**والجو دوي**
**إعصار مجنون**
**أسراب دمار أسود**

تصور هذه الأبيات رد فعل السلطة الاستعمارية للإضراب الذى قام به الشعب الجزائري، وهو إحكام الحصار على المضربين بالدبابات وجحافل الجنود المزودين بأسلحة الحلف الأطلسي.

لقد شهد الشاعر أبو القاسم سعد الله منذ طفولته على تلك الجرائم البشعة التى ارتكبها المستعمر الفرنسي، أو علم بها من الكبار، فلما شب عن الطوق سكب حزنه وغضبه فى أبيات من الشعر زادت نضجا فى شبابه، ومن هذا الشعر قصيدة حماسية نقتطف منها الأبيات الآتية:

**ونداء الجيش الوطني**
**باسم الوطن الحر**
**إضراب غدا ثوره**
**يا شعب غدا عبره**
**وغدا نطرق باب الحريه**
**نحن وأنت غدا صف**
**ستقول الأجيال الحره:**
**آبائى صنعوا مجدا**
**آبائى طردوا وحشا**
**يدعى بالحرف «فرنسا»**
**ونداء الجيش الوطني**
**صرخة عملاق**
**وعلى الجدران المغتصبه**

نقش الشعب الثائر:

**تحيا الحرية**

وهكذا اقترنت انتفاضات الجزائر ثم ثورتها الكبرى بإرهاصة الشعر بها ثم مواكبته لمسيرتها حتى النصر، فكانت ثمة علاقة جدلية بين الثورة والإبداع الشعري، إذ يؤثر كل منهما فى الآخر. وقد تبين ذلك فى عرضنا وتحليلنا الأعمال الشعرية لثلاثة من شعراء الجزائر الكبار وهم محمد العيد آل خليفة ومفدى زكريا وأبوالقاسم سعد الله.